قراءة في كتاب

المعلم الجاهل
خمسة دروس حول التحرر الذهني

أمين دراوشة

العنوان	المعلم الجاهل .. خمسة دروس حول التحرر الذهني
المؤلف	جاك رانسيير
ترجمة	د. عز الدين الخطابي
الناشر	مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، رام الله – فلسطين
سنة الإصدار	ط1، 2014 – ط2، 2016
عدد الصفحات	134 صفحة من القطع المتوسط

مغامرة المعلم جاكوطو

«وقال لي المعرفة التي ما فيها جهل
هي المعرفة التي ما فيها معرفة».
(النفري، **المواقف والمخاطبات**)

يبني المؤلف جاك رانسيير كتابه على تجربة معلم الأدب الفرنسي جوزيف جاكوطو، الذي عمل في التدريس سنوات طويلة (التعليم المدرسي والجامعي)، درّس خلالها مواد تعليمية عديدة كالأدب، والحساب، والرياضيات، والقانون.

وكان لأسلوبه الغريب أن دفع الطلبة الجامعيين إلى الهرولة للتسجيل في المواد التي يدرسها. ففي الجامعة الهولندية التي يدرس فيها، سيقوم بمغامرته بالطلب من الطلبة فهم رواية «طليماك» لمؤلفها فنيلون، وهي رواية صدرت مزدوجة اللغة (الهولندية والفرنسية)، وكتابة مخلص باللغة ، وهي اللغة التي لا يعرفها الطلبة، كما لا يعرف هو اللغة الهولندية. كانت توقعاته أنه سيحصل على قراءات هشة، وبلا معنى، أو أن الطلبة سيعلنون عجزهم، فكيف سيتمكن هؤلاء الشباب المحرومون من كل تفسير، من فهم وحل مشكلات لغة جديدة بالنسبة لهم؟ ولكنه في نهاية العملية تفاجأ «أن هؤلاء الطلبة استطاعوا تجاوز هذا الحاجز الصعب من دون مساعدة أي أحد ... أليست القدرة مقترنة بالإرادة؟» (ص 10)، فالناس قادرون افتراضياً على فهم ما فهمه الآخرون وأنجزوه.

هذه التجربة كانت كشرارة توقدت في ذهنه، وهزت إيمانه القديم القائم على أن مهمة المعلم تتمثل في نقل معارفه إلى تلاميذه، كي يصلوا إلى منزلة علمه. فالتفسير كان الفعل الأساسي للمعلم، والتدريس عبارة عن تبليغ للمعارف وتكوين للعقول كي تنتقل، عبر تدرج منتظم، من الأبسط إلى الأعقد، ... وهكذا يرتقي التلميذ من حيث مستوى امتلاك المعرفة الآتية عبر التلقين، ومستوى بلورة أحكامه إلى الدرجة التي يسمح بها وضعه الاجتماعي.

ولكن، بالصدفة، تتعرقل العملية التعليمية من الداخل، فجاكوطو لم يفسر لتلامذته العناصر الأولى للغة، ولم يبين لهم الإملاء ولا الصرف، بل قاموا بمفردهم بالبحث عن الكلمات الفرنسية المقابلة للكلمات المعروفة لديهم، وعن كيفية إعرابها، كم تعلموا وحدهم قواعد اللغة الفرنسية، فهل كانت تفسيرات المعلم غير ضرورية؟

إن الطفل يتعلم الكلمات التي يفهمها بشكل أفضل، ويستخدمها في حياته، دون مساعدة المعلم المفسر، فالكلام يوجه إليهم وهم يصغون «ويحفظون ويقلدون ويرددون ويخطئون ويصححون أخطاءهم، وينجحون بالصدفة، ويعيدون الكرة بشكل منهجي» (ص 13). وكلهم يقدرون على فهم لغة آبائهم، وتكلمها في سن مبكرة، بغض النظر عن جنسهم أو لونهم أو وضعهم الاجتماعي، وقبل أن يدخلوا المدارس ليبدأ المفسرون مهمة

تعليمهم. لقد اكتشف جاكوطو، وجعل طلابه يكتشفون أيضاً، أن الفهم عبارة عن ترجمة «أو وضع مقابل للنص، وليس لأسبابه. ولا يوجد شيء أو خلفية وراء الصفحة المكتوبة يستدعي عمل ذكاء آخر؛ أي ذكاء المفسر، كما لا توجد لغة المعلم» (ص 16)؛ أي لغة حول لغة تهيمن بكلماتها على سلطة الحديث عن علل كلمات النص وجمله. فالحقيقة ظهرت، والطلبة تعلموا بمفردهم دون معلم مفسر، وما حدث مرة يظل ممكناً على الدوام، ولقد أحدث هذا الاكتشاف انقلاباً في مبادئ المعلم جاكوطو. وبدت التجربة واعدة بالنسبة له، «فباستطاعتنا تعليم ما نجهله، إذا حررنا التلميذ، أي إذا ألزمناه استعمال ذكائه الخاص» (ص 20).

فالمعلم قد يسجن الذكاء بشكل تعسفي داخل دائرة، ويمكن تحرير الجاهل إذا كان المرء متحرراً هو نفسه، أي واعياً بالسلطة الحقيقية للعقل. فجاكوطو يرى أن التلميذ يتعلم وحده ما يجهله المعلم، إذا اقتنع المعلم بهذه الإمكانية وأجبر التلاميذ على تحييد قدراته.

فالتعلم أصبح قائماً لديه على التحرر من المعرفة، والمعلم الذي لا يتحرر منها يساهم في التبليد، والمتحرر لا يهتم بما يجب على المحرَّر تعلمه. فهو يستطيع تعلم ما يريد، «وسيعلم أن بإمكانه التعلم لأن الذكاء نفسه يعمل داخل الإنتاج الإنساني، ولأن الإنسان قادر دوماً على فهم كلام الآخر» (ص 22–23).

واستطاع جاكوطو أن يعلم ابنه الذي يشكو من إعاقة صعبة للغاية اللغة العبرية، وأصبح هذا الابن عاملاً ماهراً في الطباعة، ولا ريب أن اللغة العبرية لم تفده بشيء، اللهم في معرفة ما تجهله أكثر الذكاءات موهبة ومعرفة، وهو «أن التعلُّم لم يكن أمراً مستحيلاً» (ص 23).

شأن كل واحد منا

«التحرر هو الوعي بهذا التكافؤ وبهذا التبادل الذي يسمح للذكاء بأن يتحقق ويكون راهناً».
(**الكتاب**، ص34)

استطاع جاكوطو التوصل إلى أن تحرير الغير يستلزم بالضرورة أن يكون المرء متحرراً، و«أن يعرف نفسه بنفسه كمسافر في عالم الفكر، شبيه بالمسافرين الآخرين، وكذات فكرية مساهمة في القوة المشتركة بين الكائنات المفكرة» (ص 38). فما هو السبيل للوصول إلى هذه المعرفة الذاتية؟

إن رب الأسرة القروي أو الحرفي سيتحرر فكرياً، عندما يبدأ يفكر في وضعه، وفي ما يفعله داخل النظام الاجتماعي. فالتعليم الشمولي الذي دعا إليه، يتلخص بالسؤال التالي: ما رأيك في ذلك؟

فقوة هذا التعليم «تتجلى في وعي المعلم بالاستقلالية وإثارة هذا الوعي لدى المتعلم. فبإمكان الأب تحرير ابنه إذا شرع

مسرح الدمى ينفذ عروضاً للأطفال في مركز المعلمين في نعلين، في إطار عمل المركز مع الأطفال والأهالي، رام الله 2016.

في معرفة نفسه بنفسه؛ أي في فحص الأفعال الذهنية التي يقوم بها، وفي ملاحظة الطريقة التي يستخدمها في أعماله، من أجل إبراز قدرته بوصفه كائناً مفكراً» (ص 40). فالوعي بالتحرر هو جرد لكفايات الجاهل الذهنية. فهو يعرف لغته، ويستعملها للاحتجاج على وضعه، ولطرح الأسئلة على الذين يظنون أنهم يعرفون أكثر منه. كما أنه يعرف مهنته وأدواته، والكيفية التي تستخدم فيها، وعندما يحتاج سيكون قادراً على إتقانها. ولا بد له من التفكير في قدراته، وفي الطريقة المستخدمة لاكتسابها.

معلمات مدرسة بكالوريا الرواد في لقاء حول توظيف الدراما في التعليم بإشراف وسيم الكردي، نابلس 2016.

فالفكرة لا تتعلق بوضع تقابل بين المعارف اليدوية للشعب وذكاء الأداة والعامل وبين علم المدارس أو بلاغة النخب، فالأمر يتعلق بتأكيد أنه لا يوجد ذكاءان، وأن كل عمل من إبداع الإنسان يولد عن الإمكانيات الذهنية نفسها. ففي كل مكان، يجب القيام بالملاحظة والمقارنة والجمع والعمل، وكذلك ملاحظة كيف نعمل، ففي كل مكان يتم التفكير والرجوع إلى الذات «التي ليست عبارة عن تأمل خالص لجوهر مفكر، بل هي اهتمام غير مشروط بالأفعال الذهنية وبالطريق المرسوم وبإمكانية التقدم في المسار بالاعتماد على الذكاء نفسه من أجل كسب مناطق جديدة» (ص 41).

فالشخص الذي يقيم تعارضاً بين اليد العاملة والشعب المعيل، وبين تأملات البلاغة سيبقى بليداً، فصناعة الأفكار ليست سوى عمل فني إنساني، وهي تتطلب المجهود نفسه والعناية الذهنية نفسها التي تتطلبها صناعة الأحذية والأقفال.

إن الأمر الذي ينبغي التحقق منه هو التكافؤ المبدئي بين كل الكائنات المتكلمة. فأفضل مشهد هو الذي يتكلم فيه الإنسان، ومن الحق الطبيعي أن يفكر المستمع في ما سمعه، بل من واجب المتكلم أن يدفعه إلى هذا التفكير، «لذلك ينبغي أن يتأكد المستمع من أن المتكلم على صواب، وهل سيحيد عنه أم سيلتزم به. ومن دون هذا التحقق الذي يفرضه تكافؤ الذكاءات، لا أرى بالحوار سوى تخاطب بين أعمى وكلبه» (ص 44). فالأعمى الذي يتحدث إلى كلبه يعبر عن خرافة عالم الذكاءات غير المتكافئة، ويرى المؤلف أن هذا الأمر متعلق بالفلسفة وبالإنسانية، وليس بوصفات بيداغوجيا الأطفال. فالتعليم الكوني يعني، قبل كل شيء، «التحقق الكوني للشبيه الذي يمكن أن يقوم به كل المتحررين وكل الذين قرروا التفكير في أنفسهم كأناس يشبهون الآخرين» (ص 45).

إرادة يخدمها الذكاء

«فالكائن العاقل هو، في المقام الأول، كائن مدرك لقوته، وهو لا يكذب على نفسه بخصوص هذه القوة».
(**الكتاب**، ص95)

الإنسان هو إرادة يخدمها الذكاء، والإرادة سلطة عقلية، ومقابل الذات المفكرة التي لا تتعرف على نفسها باعتبارها كذلك، إلا بتحررها من كل الحواس والجسم، «ستبرز الذات المفكرة الجديدة التي تتحقق عبر الفعل الممارس من طرفها على ذاتها وعلى باقي الأجساد» (ص 57). هكذا يوضح جاكوطو المساواة الديكارتية للكوجيطو.

يعلن التعليم الشمولي أن بإمكان الفرد أن يفعل ما يريد. وحتى لا يلتبس علينا مفهوم الإرادة، يقول جاك رانسيير: إن التعليم الشمولي ليس مفتاحاً للنجاح، مهدى إلى الجسورين الذين يكتشفون القدرات الهائلة للإرادة، فهذا الإقرار يعارض فكر الاستقلالية. لذلك، يحس المعلم بالانزعاج عندما يضع تلامذته على أبواب مدارسهم شعار: من يريد يقدر، لأن الشعار الصحيح هو: «تكافؤ الذكاءات. فالتعليم الشمولي ليس أسلوباً عسكرياً. صحيح أن الطموحين والفاتحين يقدمون عنه صورة صارمة، ويعتبر شغفهم منبعاً لا ينضب من الأفكار، كما أنهم يرغبون في توجيه الضباط والعلماء أو رجال المال، على الرغم من جهلهم بمهن هؤلاء» (ص 59). والمهم هنا ليس هذا التأثير البراق. فالطموحون الذين يكسبون سلطاناً معرفياً عندما يعتبرون أنفسهم أقل من بعض الناس، يخسرونه عندما

يعتقدون أنهم أسمى من البعض الآخر. فالمهم هو اكتشاف قدرات الإنسان الذي يعتبر نفسه كفئاً ومساوياً للآخرين. وتعني الإرادة هنا «عودة الكائن العاقل إلى ذاته وتعرّفه عليها بوصفها فاعلة. هكذا تنهل حركة الذكاء من مقر العقلانية ومن الوعي واحترام الذات، باعتبارها كائناً عاقلاً وفاعلاً» (ص 59). فالكائن العاقل، بالأساس، كائن مدرك لقوته، وهو لا يخدع نفسه بخصوص هذه القوة.

التكافؤ ... التحرر

«لا توجد سوى طريقة واحدة للتحرير،
ولا يستطيع أي حزب، أو حكومة، أو جيش، أو مدرسة، أو مؤسسة،
تحرير شخص واحد .. إنها التعليم الشمولي».
(**الكتاب**، ص89)

يعتبر واجب تلاميذ جاكوطو بسيطاً، فليس عليهم سوى إعلام الجميع في كل مكان، ومهما كانت الظروف، بالخبر النافع، وهو إنه يمكن تعليم ما نجهله، وهكذا سيكون بمقدور رب عائلة فقير وجاهل البدء في تعليم أبنائه. ويتعين إقرار مبدأ هذا التعليم فقط، وهو: «ينبغي تعليم شيء ما وتقديم الباقي وفق المبدأ الذي مفاده أن كل الذكاءات متكافئة» (ص 97). إذن، لا بد من الإعلان عن ذلك والتهيؤ للتحقق منه من خلال مخاطبة الفقير، ودفعه إلى الحديث عن وضعه وعما يعرفه، وتعليمه كيف يعلم ابنه، والاستعداد لاستقبال من يرغب أن يتعلم من معلم التعليم الشمولي ما يجهله هو نفسه، وأخيراً، استعمال كل الوسائل لإقناع الجاهل بأن لديه سلطة، وكمثال على ذلك، حاول تلميذ أن يقنع عجوزاً فقيرة بتعلم القراءة والكتابة، ولكنه عجز عن ذلك، فعرض عليها أن يدفع لها المال مقابل تقبل مبتغاه، وفي غضون خمسة أشهر، تمكنت العجوز من التعلم، وهي تقوم الآن بتحرير أحفادها.

هذا الذي يجب القيام به، فمعرفة مؤلف «طليماك» أو أي كتاب آخر، غير مهمة بحد ذاتها، بل المهم الرفع من قيمة الذين يظنون أن ذكاءهم أقل من ذكاء الآخرين، «وإخراجهم من المستنقع الذي يقبعون فيه، والمقصود به مستنقع احتقار الذات واحتقار الكائن العاقل في ذاته، وليس مستنقع الجهل» (ص 97). إذن، يجب تكوين أناس أحرار ومحررين.

إن التكافؤ ليس هدفاً بحد ذاته، بل هو منطلق أو افتراض يتعين الحفاظ عليه في كل الظروف. فهو لن يوجد إلا داخل تحققه، وعبر فحصه دوماً وفي كل مكان. فـ«ابحثوا عن الحقيقة، لكنكم لن تجدوها، اطرقوا الأبواب، لكنها لن تفتح لكم، غير أن هذا البحث سيكون مفيداً لكم لتعلم الفعل ... تخلوا عن الارتواء من هذا الينبوع، لكن لا تتوقفوا أبداً عن السعي إلى الشرب منه ... أقبلوا كي ننظم الأشعار. فلتحيَ فلسفة معرفة تجلي الذكاءات! فهي رواية لا ينضب معينها، تتمتع بالخيال وليست مطالبة بتقديم تبريرات للحقيقة. وهي لا ترى هذه الحقيقة المنقّبة إلا من خلال اللباس التنكري الذي يغطيها» (ص 129–130). وتكتفي برؤية هذه الأقنعة وتحليلها دون أن تنشغل بالوجه الموجود تحتها. فالطريقة القديمة ستكون غاضبة دوماً ولن ترضى أبداً، وهي تزيل قناعها وتستمتع بذلك، ولكن فرحها سيتلاشى لأنها تدرك أن القناع الذي أزالته يغطي قناعاً آخر، وهكذا إلى أن يتم استنفاد كل الباحثين عن الحقائق، إن رفع هذه الأقنعة التي يوجد بعضها فوق بعض هو ما يسمى بتاريخ الفلسفة، «فيا له من تاريخ جميل! لكنني أفضل حكايات تجلي الذكاء لدى الجميع» (ص 130).

الكتاب يتضمن العديد من الموضوعات المهمة، والكثير من الأدلة والأمثلة على صحة التعليم الشمولي، والكتاب يعمل على خلخلة قناعاتنا حول التعليم، ويدفعنا إلى التفكير في ما نجهل لنمتلك معرفة حرة لا تقيدها قيود أو قوانين. يحفزنا الكتاب على ترك أبنائنا وطلبتنا ليتعلّموا ويكتشفوا ويصلوا إلى استنتاجاتهم الخاصة دون حاجة إلى معلم كلي المعرفة، يفسر لهم كل جملة.

وكان جاكوطو يفضل «متحرراً جاهلاً واحداً على مئة مليون عالم غير متحرر» (ص 127)، فما يحققه التعليم الشمولي جدير بالاهتمام والثناء.

كاتب يقيم في رام الله

طلاب المدرسة الصيفية: الدراما في سياق تعلمي خلال أحد المساقات بإشراف ماغي هيلسون، جرش– الأردن 2016.